

وذاًعاً... سمير قصير

بشارة شربل



لن تتكسر أقلام الصحفيين الأحرار لتتحقق مآرب "العسس" الذين اغتالوا سمير قصير. فصحافة لبنان من عمر الحرية فيه، عصية على التدجين، وأبية في مواجهة التهريب، والمساهم الأكبر في ساحة الشهداء منذ أيام بني عثمان. لكن صحافة لبنان جريحة وحزينة إذ تتشكل بصحافي وكاتب ومثقف حر من طراز سمير الذي خسرتاه.

بكى محبوبك أمس يا سمير مع انهم لم يؤخذوا على حين غرة بالنبا الأليم. فمنذ بدأت الكتابة السياسية في ايام جمهورية الخوف كنت مشروع شهيد. وكنا كلما قرأناك نبتسم ونخاف في أن. فالجراة في بلاد تحترف القتل ليست مرضا على الحقيقة، بل بطاقة دعوة ملصحة الى عالم الموت الغامض والظلمة الدائمة وابتلاع الرجال النبلاء.

قل ان اجتمعت في صحافي صفات كتلك التي تجمعت في سمير قصير. مثقف صاحب رؤيا وجريء في مطلب الحرية المطلقة. مرفه لم يبلغ الخوف من حساباته في الأيام الحالية، لكنه اعتقد دائما بأن وردة الحرية لن تقطف بالتهديد وان الارهابيين أجبن من ان يفتالوا كلمة، فأخطأ هذه المرة الحساب.

أجمل ما في سمير قصير لم يكن تلك "اللبنانية" الغامرة والصادفة التي جعلته يكون في الصف الامامي من "انتفاضة الاستقلال" وصاحب النكهة المميزة هو و "اليسار الديمقراطي" في ساحة الحرية. ولم يكن أحلى ما في سمير تلك "العروبة الديمقراطية" الملتزمة الحق الفلسطيني والعربي والمنفتحة على العالم والمحاربة للعصبيات. كانت "عالمية" سمير المنبثقة من انسانيته الشاملة هي ميزة ذلك الرجل الذي يفن حقه لو اختزل بانتفاء... عابر للطوائف، عابر للحدود. كأنه فضاء شاسع ينتمي لو يظل حرية آخر شخص في مجاهل افريقيا بقدر حمايته حرية أبناء لبنان.

تقصر عبارات المديح بسمير قصير لو اعتبرته فقط بطلا في "انتفاضة الاستقلال" او شهيدا سقط غيلة على يد المجرمين. فسمير لم يحب البطولة ولم يكن هاويا للاستشهاد. وهو يمتدح خصوصا لانه كان رجلا حرا يحب الحياة الكريمة له وللآخرين، وانسانا حقيقيا بلا قناع، وضعيفا ازاء اي انتهاك لحقوق اي انسان، ومثقفا سخر ذكاه الحاد لخدمة الحقيقة والحرية في كل مكان.

لن نهتف لك يا سمير ولن نرفع القبضات. نرغب في ان نبكيك اليوم بصمت، وحدنا، حين نأوي الى الفراش، او داخل مكاتبنا، او حين نسمع مقتطفات ارشيفية من تحليلاتك. فأنت، ولو كنت مشهورا ورجل قلم واعلام، فكأنك كنت تحدث في كتاباتك كل واحد منا بسر خاص يجعلنا نقرأك، فنقول انك قرأت أفكارنا او اننا كدنا نبوح بما سبقتنا اليه، او انك أمسكت بومض فكرة عصت علينا، أو خانتنا شجاعتنا فغفلنا عنها، او دورنا زواياها فحفظنا منها قوة الدلالات. كان سمير قصير... كيف استطاعت 250 غراما من المتفجرات تحويلك الى صيغة الماضي الذي كان، وانت بيننا مؤرخ وصحافي لامع صاحب اسلوب وحضور وموقف يهجم بالمستقبل؟ كيف نجرؤ على مخاطبتك وكأنك لم تكن، بينما دمك لا يزال طازجا على اوراقنا وفي عيوننا؟

لن تركع الصحافة. كلام نقوله كلما سقط قلم على مذبح الحرية في لبنان. لكننا مفعوعون بخسارة من كان يستحق الحرية والحياة لينجز بالكتابة والتعليم والسياسة اضافات نوعية يضعها في خدمة أهل الحياة. ونحن مكسورون حزنا على من استطاع بقوة الموقف وعمق الرؤيا وسحر الكلمة ان يكسر خطاب التخويف والتهريب والتخوين وقت عزت الأعلام.

المصاب مزدوج يا سمير. مصابنا نحن الصحافيين باستشهادك انت ممزوجا بالخشية من عودة مسلسل العنف الى البلاد، وألمنا لمصاب زميلتنا جيزيل التي اختارتك شريك قضية الحرية والحياة. و"صدى البلد" إذ تعزي الزميله الكبيرة "النهار" والصحافة اللبنانية وكل أهل الرأي الحر وعائلة الزميل الشهيد تأمل ان يكون سمير قصير آخر الشهداء وان تبقى شعلة الحرية مضاءة في صدور أهل الصحافة في مواجهة الجريمة والارهاب وأعداء الحرية.